عند مايئسوا من الوصول اليه بالاذى من هذا الطريق أوحوا الى الوالي ما افقوه من الايحاآت السياسية بحقه حتى ألجأوا الوالي لمراجعة الآستانة في أمره فجاء الامر بطلبه اليها فأرسل محفوظا عن طريق بيروت (وكانت مدة اقامته بدمشق سنة وستة أشهر) فبقي في الآستانة تحت الحفظ ستة أشهر ثم أرسل محفوظا الى وطنه حمص « مأمور اقامة » بالراتب المذكور ، وكانت اعادته عن طريق ميناء الاسكندرونة فحلب فحماه فحمص

قضى مدة عند أهله فضاق صدره ففرّ هاربا الى مصر معهد الحرية عن طريق طرابلس الشام سنة ١٣٢٠ وبعد وصوله ببرهة وجيزة رغب اليه صاحب جريدة المؤيد ان يكون محرراً فيها ، فاستلم الوظيفة ، وكتب ما كتب فيها من المقالات المفيدة . ثم ألف بعض كبراء القطر المصري حزبا سموه حزب الامة وأنشأوا جريدة له سموها (الجريدة) فدعوه الى التحرير والتنقيح فيها فلبى طلبهم وداوم على عمله حتى حصل الانقلاب العثماني وأعلن الدستور فطلبه اخوانه بحمص ليكون نائبا عنهم في مجلس النواب (المبعوثين) فأجابهم حباً بخدمة الامة والوطن فانتخب هو وخالد أفندي البرازي مبعوثين من لواء حماه فذهب الى الآستانة فكان صوته في المجلس من أعلى الاصوات وأقواها في اقامة الحجة وايضاح المحجة

(لها بقية)

الشيخ محمد كامل الرافعي

في أواخر العام الماضي فجعت طرابلس الشام وهي غارقة مع سائر البلاد السورية في طوفان مصائبها بوفاة أفضل علمائها وأعلم فضلائها مثال الفضيلة والاخلاص الاعلى في هذا العصر ، وذكرى السلف الصالح في ذلك العصر ، أصدق أصدقائنا وأخلص أوليائنا « الشيخ محمد كامل ابن الشيخ عبد الغني الرافعي الطرابلسي الشهير

ولد الفقيد في طرابلس الشام سنة ١٢٧٢ أو ١٢٧٠ ولما بلغ سن التمييز أقرئ

القرآن الكريم وتعلم مبادي الخط والحساب في أحد مكاتب الصبيان ثم دخل المكتب الرشدي العثماني أي المدرسة الابتدائية الرسمية للحكومة فتعلم فيها مبادئ اللغة التركية ومايدرس بها من مبادي الفنون الرياضية وغيرها ومنه النحو والصرف للغتين العربية والتركية وعلم الحال وهو عبارة عن العقائد والعبادات الدينية والآداب. ثم تلقى العلوم العربية والدينية على أعلم علماء العصر، الذين بذت طرابلس بهم كل مصر، والده والشيخ محمود نشابه والشيخ حسين الجسر، فقد كان وجود هؤلاء في طرابلس مصداقا لقول المتنبي

أكارم حسد الارض السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس

ولما كانت الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعليم كما قال الحكيم ابن خلدون لما فيها من حفز الهمة، والانقطاع اليه بمفارقة الاهل والاحبة، وكان حب عشيرة الرافعية للازهر وتعلقهم به يفوق ما يعرف من ذلك عند غيرهم من أهل طرابلس وغيرها من البلاد الاسلامية، لان الرافعي الذي يرحل من طرابلس الى مصر لا يشعر كغيره بمفارقة وطن، ولا بغربة عن الاهل والسكن، لان اكثر عشيرته يقيمون في مصر، فهو في الهجرة الموقتة اليها يجمع بين فوائد الغربة، وأنس القرابة والقربة، ... رحل الفقيد الى ... في سنة ١٨٩٧ وجاور في الازهر سنين لم أقف على عددها، وكان أشهر شيوخه فيه كبير الرافعية، وأفقه فقهاء الحنفية، الشيخ عبد القادر الرافعي، والشيخ محمد الشربيني الشافعي الشهير الذي أدركنا الناس أخيرا يعظمونه في الذروة من علماء الازهر في كل علم وفن يدرس فيه، وفي المحافظة على أخلاق علماء الدين، والشيخ عبد الهادي الابياري الشافعي الشهير بالجمع بين العلوم الدينية، والتفنن في أدبيات اللغة العربية، والشيخ أحمد الرفاعي المالكي الشهير الذي كان غير مزية له انه كان آخر من قرأ جميع كتب السنة الستة في الازهر

وهؤلاء الشيوخ الكبار لم يكونوا يفوقون شيوخه اللذين في طرابلس في علم من العلوم ولا فن من الفنون ولا في أخلاق الدين وفضائله الا أن يكون ما اشتهر عن الشيخ عبد القادر الرافعي من سعة الاطلاع والتحقيق في فقه الحنفية

واننا نقدم على ترجمة الفقيد تعريفا وجيزا بشيوخه الثلاثة في طرابلس لاننا رأينا لكل منهم أثرا واضحا في سيرته العلمية والعملية والادبية

الشيخ محمود نشابه

أما الشيخ محمود نشابه فقد أقام في الازهر زهاء ثلاثين سنة طالبا ومدرسا وأتقن جميع ما يدرس فيه حتى علم الجبر والمقابلة الذي هجر بعد عهده ، ثم قضى بقية عمره المبارك في طرابلس في تدريس تلك العلوم فتخرج به كثيرون وكان شيخ الشافعية والحنفية جميعا وقلما أتقن أحد فقه المذهبين مثله ، وقد أدركته في أوائل الطلب وقرأت عليه الاربعين النووية وأجازني بها قبل الشروع في طلب العلوم ثم كنت أحضر درسه لشرح البخاري في الجامع الكبير واقرأ عليه صحيح مسلم وشرح المنهج بداره وحضرت عليه طائفة من شرح التحرير وهو في فقه الشافعية كالمنهج . وما عرفت قيمته وتفوقه على جميع من لقيت من علماء الاسلام في علومه الا بقراءة صحيح مسلم عليه فانني كنت أقرأ عليه المتن فيضبط لي الرواية أصح الضبط من غير مراجعة ولا نظر في شرح ، واسأله عن كل ما يشكل عليّ من مسائل الرواية والدراية فيجيبني عنها أصح جواب ، وكنت أراجع بعض تلك المسائل بعد الدرس في شرح مسلم وغيره ولا أذكر انني عثرت له على خطأ في شيء منها . وكان اذا راجعه بعض تلاميذه أو غيرهم في غلط وقع فيه يقبله بدون أدنى امتعاض لما تحلى به من الانصاف والتواضع وغيرهما من الاخلاق المحمدية . أعطاني شرحه للبيقونية في مصطلح الحديث بخطه فرأيته استعمل في فاتحته لفظ الفالح بمعنى المفلح فراجعته فيه فأمرني أن أصلحه وأصلح كل خطأ من قبيله ، ورأيته ارتاح لذلك وسرّ به .

وكانت معيشته معيشة الزهاد لا يبالي بزينة الدنيا ولا زخرفها ولا يحفل بحكامها وكبرائها ، كان في طرابلس متصرف من أهل العلم اسمه عارف باشا وكان يزوره علماؤها الا الشيخ فذهب المتصرف لزيارته في داره فرده عن الباب ولم يأذن له بالدخول . خرجت مرة معه للرياضة في ضواحي البلد فاكدنا نحاذي دار الحكومة بجوار تل الرمل حتى تعب الشيخ . فالتفت الي وقال : ياسيد رشيد أعندك

كبر ؟ قلت أرجو أن لا يكون عندي كبر . قال اذاً اقعد معي على الارض هنا للتريح . فقعدنا بجانب الطريق

وقد رثيته بقصيدة أذكر منها هذه الابيات للدلالة على ما كان له من المكانة في نفسي وقتئذ مع القول بأن هذه المكانة لم تتغير الى اليوم :

شيخ الشيوخ امام العصر أوحده ... ووارث المصطفى فينا ونائبه
فلك الطريقة أو در الحقيقة في ... يم الشريعة راسيه وراسبه
ومرجع الكل في حل النصوص وفي ... حل العويص اذا أعيت مصاعبه
رب الحقائق كشاف الدقائق محمود الخلائق من جلت مواهبه
من حلقت هامة الافلاك همته ... وزاحمت منكب الجوزا منا كبه
من لا نحد بتعريف معارفه ... وليس نحصى بتنقيب مناقبه
من كان عن خشية الله منكسرا ... ولان عن رفعة للناس جانبه
من أحيت السنة الغرا مآثره ... وأفنت البدعة السودا قواضبه
وما قواضبه الا يراعته ... والكتب كم ألفت منها كتائبه

ومنها

خطب أواب فؤاد الشرع فانفطرت ... مرارة الكون وارتاعت مغاربه
قد مزق الفلك العلمي أطلسه ... ومن مكوكبه انقضت كواكبه
ومنهج العلم أمسى اليوم مسلكه ... وعرا نجوب مجاهيلا جوانبه
وصدر شرح البخاري ضاق فيه وكم ... قامت على مسلم تبكي نوادبه
لئن بكى تابعو النعمان مذهبه ... فالدين من بعده ضاقت مذاهبه
هذا ابن ادريس بعد الشيخ قد درست ... دروس مذهبه وارتاع طالبه

ومنها

لله مثوى بباطن الارض مذ به ... بحر تفيض بلا جزر ثوائبه (١)
مثوى حوى منه ذا فضل لقد حسدت ... ترابه من أخي العليا ترائبه

(١) الثوائب مياه المد الذي يعقب الجزر فهي البيت الاغتراس من أنواع البديع

ثوى فقد حفظ الثأر الاثير على ثراه اذ ظفرت فيه رغائبه
لئن دفنا به شخص الكمال فمعنى فالروح طارت الى عدن نجائبه

الشيخ عبد الغني الرافعي

وأما والد الفقيد الشيخ عبد الغني الرافعي فقد حصل العلوم والفنون الدينية واللغوية في طرابلس ودمشق الشام وأشهر شيوخه في طرابلس الشيخ نجيب الزعبي الجيلاني، ولا أعرف شيوخه في دمشق ومن المعروف المشهور انه كان فيما يومئذ نفر من اكبر علماء الاسلام في العالم، وكان الشيخ لوذعي الذكاء يحصل في سنة ما لا يحصله الاكثرون في سنين ، وقد امتاز بين فقهاء عصره بالجمع بين النبوغ في علوم الشرع والتصوف والادب فكان فقيها مدققا وصوفيا مصفى وأديبا شاعرا ناثرا، وله في كل ذلك ذوق خاص . سلك طريق الصوفية على الشيخ رشيد الميقاتي الشهير سلوكا صحيحا بالرياضة الشديدة ومداومة الذكر حتى رأى من الاسرار والعجائب الروحية ما لا محل لذكر شيء منه في هذا التعريف الاستطرادي . وكان عالي الهمة قوي العناية شديد المواظبة فيما يأخذ فيه من علم أو عمل على غير المعهود من اكثر مفرطي الذكاء أمثاله . سمعت منه انه قرأ كتاب أدب الدنيا والدين ثلاثين مرة، وقرأ احياء العلوم للغزالي مرارا كثيرة لا أذكر عنه عددها

أدركناه في شيخوخته قوي الجسم والعقل والذكرة وكان جميل الهيئة كأن وجهه ورد يحيط به الياسمين من شيبته الناصعة، وكان يلبس أحسن الملابس ويأكل أطيب المآكل ويسكن دارا مزينة بالنقش والاثاث الجميل، وتزوج في شيخوخته بكرا رزق منها أولادا، وكان يرى في سن السبعين انه لم يفقد من مزايا الشباب شيئا ، ولم يشغله رخاء العيش عن اشتغال القلب واللسان بذكر الله ومذاكرة العلم ، ولي افتاء طرابلس وهو أعلى منصب لرجال العلم في عرف الدولة العثمانية ، وولي القضاء لولاية اليمن ، ولم يكن في مكانه من الرياسة والجاه يمتنع من وضع يده بيد رجل فقير يلبس الاسمال البالية ويمشي معه في السوق اذا كان له مزية من علم أو صلاح ، اذ كانت أخلاقه أخلاق كبار الصوفية ومظهره مظهر كبار رجال الدنيا ، ولكنه ما كان ليجلس بجانب الطريق العام على التراب امام دار الحكومة كما فعل الشيخ محمود نشابه

أذكر مما سمعت من أخبار تصوفه انه سافر من بلده وهو في مقام المتوكل ولم يكن معه شيء من الدراهم فيسر الله له الامر ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن أخبار أدبه انه لما سافر الى الآستانة لقي في الباخرة بعض رجال العلم والادب فلما عرف الرجل فضله قال له :

فيم اقتحامك لج البحر تركبه وأنت تكفيك منه جرعة الوشل

فأجابه على الفور ببيت من هذه القصيدة (المعروفة بلامية العجم) :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلي

ولما لم يعرف له رجال الآستانة قيمته أراد التحول عنها الى مصر ، فأرسل الى الشيخ عبد الهادي نجا الابياري رسالة برقية يتوسل بها الى توفيق باشا عزيز مصر في ذلك العهد وهي هذان البيتان :

قالت لي النفس الابية مذ رأت في الروم ضاع اسمي وضل رشادي

سيري لدار الفضل مصر انها يهديك للتوفيق عبد الهادي

وأذكر مما رأيت من انصافه وتواضعه انه كان عند ما يزورنا في القلعون يعهد الي أن أقرأ عليه شيئا من احياء العلوم لانني كنت مولعا بمطالعته من قبل الشروع في طلب العلم ، فانتهيت في القراءة مرة الى فصل في الحكايات التي يذكرها أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في بعض الابواب كحكايات البخلاء والسخياء فاستوقفني الشيخ وقال : اني مستغرب لحشو المصنف قدس سره هذه الحكايات في هذا الكتاب وكله علم وتحقيق لولا هذه الحكايات .. قلت اني أرى هذه الحكايات من أهم مقاصد الكتاب فانه كتاب تربية وانما تتم التربية بالتأسي والقدوة ، فالترغيب في السخاء بالآثار المروية والحكم المنقولة لا يبلغ تأثيره وحده ما يبلغه ما نرى في هذا الكتاب وغيره من ذكر حكايات الاجواد من السلف وما كان التربية في الجمع بين الترغيب بالقول، والقدوة بالفعل، فقال لي : أعيذك بالواحد * من شر كل حاسد * اني أقرأ هذا الكتاب من قبل أن تخلق وقد قرأته مرارا وأنا أفكر في هذه المسألة وأنتقدها على المؤلف ، ولم يخطر في بالي هذا الغرض الواضح الذي لاشك في انه كان يرمي اليه رضي الله عنه . ولم يكشف الشيخ قدس الله روحه بهذا الثناء بل كان

يذكر هذا الجواب في كل مجلس من مجالسه العلمية الادبية عقبه ويقول لمجالسيه وأكثرهم من تلاميذه ومريديه : انني كنت مستشكلا هذه المسألة منذ عشرات من السنين وقد حلها لي هذا الغلام النابغ النابه على البداهة . أو ما هذا معناه بالاختصار

وقد استفاد من اقامته في اليمن فوائد عظيمة منها ان مذاكراته ومناظراته لعلماء الزيدية مع ما علمت من انصافه قوى في نفسه ملكة الاستقلال في فهم الدين وفقه الحديث عرف سيرة الامام الشوكاني فاقتنى كتابه (نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار) ولما عاد الى طرابلس كان يقرأه درسا فيا بين المتهين من طلاب العلم كما علمه الشيخ محمد كامل المترجم . وقد حضرت بعض هذه الدروس ولكنني كنت مبتدئا لا أفهم شيئا من الاصطلاحات الاصولية والحديثية فيه. وإنما كان يسمح لي بحضورها ما كان لي من الكرامة الشخصية عند الشيخ وأهل بيته بوادهم مع والدي وأهل بيتاه ومن أعجب ما سمعناه منه عن أهل اليمن انه لم يتفق له في مدة توليه القضاء فيهم أن سمع من أحد منهم شهادة زور ، أو كذبا على الحاكم أو الخصوم ، بل كانوا يقولون له أحكم بالشرع ياعبد الغني ! فيقول نعم، فيصدقونه في شرح منازعاتهم

توفي حاجا بمكة فرثيته بقصيدة مطلعها

طوى لمن بجوار الله قد نزلا ... وقد أعدّ له جناته نُزُلا

وياهنيئا لمن استفاد سيده ... في عهده القرب من كأس الشهود علا

ومنها

نعم لقد مات علم الدين وانكسفت ... شمس الرشاد وبدر الهدي قد أفلا

نعم لقد قبضت روح التصوف ولا ... نصاف منا وجيد الفقه قد عطلا

نعم قد اخترم التبيين واحتكم التلو ... ين واصطلم التمكن مرتجلا

ومنها

لئن بكاه بنا علم اليقين فقد ... قرت به عينه مذ كأسها نهلا

وان غدا فيه كل الفضل مجتمعا ... فقد تفرق في أبنائه النبلا

فللمعارف والارشاد كالهم ... من حالف العلم فيه الهدي والعملا

وفي البلاغة كم عبد الحميد سما ... وللتهدي بها أي البيان تلا

المقارنة بين الشيخين

أختم هذا التعريف المختصر بالشيخين اللذين انتهت اليهما الرياسة العلمية في وطننا بمقابلة وجيزة بينهما فأقول ان الشيخ نشابه كان أوسع من الشيخ الرافعي اطلاعا ومعرفة لما عدا التصوف والادب من العلوم المعقولة والمنقولة وكان واقفا عليها تمام الوقوف بفهم تام لكل ماقرأه من الكتب في الازهر وغيره كتفسير البيضاوي وغيره وشروح كتب السنة وكتب الاصول والفقه وفنون العربية الخ ولكنه كان مقلدا في المسائل وأدلتها غالبا قلما يفكر في استعمال فهمه في انتقاد المعتمد في تلك الكتب. فكان لهذه العلوم والفنون كحفاظ الحديث غير المستنبطين، وياالها من مزية قلما نجد الآن أحدا من رجالها. وكانت عبادته كعبادة السلف وهي النوافل المأثورة وكثرة تلاوة القرآن. وأما الشيخ الرافعي فكان على ما امتاز به من علوم الاخلاق والتصوف والادب فقيه النفس مستقل الفكر اذا ظهر له رجحان مذهب الزيدية مثلا على مذهب الحنفية الذي نشأ عليه تحصيلا وعملا وافتاء وقضاء لا يمتنع من القول بترجيحه

وقد كان بين الشيخين شيء من تغاير المعاصرة في سن الشباب لانتهاء الرياسة العلمية اليهما، ولكن على أخلاقهما وقف بهما دون التنافس الذي يجر عادة الى التحاسد والطعن، ومما وقع بينهما من المناظرة أن الشيخ عبدالغني رحمه الله استخرج من قوله تعالى (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا) مئة سؤال وجاء مجلس الشيخ محمود نشابه إذ كان يقرأ تفسير هذه الآية في البيضاوي درسا وشرع يلقي عليه سؤالا بعد سؤل وهو يجيبه غير مكترث ولا شاعر بأنه مناظر مختبر، فلما كثرت الاسئلة تنبه فأطبق الكتاب ووضع يديه على صدره والتفت الى السائل وقال: أتريد أن تسأل ياعبد الغني؟ اسأل هيه، اسأل، هيه، فما زال السائل حتى فرغ مما عنده ولم يعجز المسؤل ولا توقف في سؤال من تلك الاسئلة

الشيخ حسين الجسر

وأما الشيخ حسين الجسر فقد حصل العلوم في طرابلس واكبر شيوخه فيها الشيخ محمود نشابه وجاور في الازهر بضع سنين ومن أشهر شيوخه فيه الشيخ المرصفي الشهير وقد امتاز بين علماء الدين بالنظر في العلوم والفنون التي يسمونها العصرية،

و بقراءة الجرائد السياسية والمجلات العلمية ، فكان لذلك يرغب في جمل طلاب العلوم الدينية جامعين بينها و بين الالمام بتلك العلوم والفنون فسعى لحمل بعض الاغنياء على انشاء مدرسة دينية فظاية تعلم فيها بعض الرياضيات والطبيعيات على الطريقة الاوربية واللغتان التركية والفرنسية فأنشئت (المدرسة الوطنية) وكان هو مديرها وقد دخل كاتب هذه السطور في القسم الداخلي منها سنة ١٣٢٩ أو ١٣٠٠ فكان ذلك أول العهد بطلبه العلم بعد ان تعلم القراءة والخط في مكتب الصبيان بالقلمون وطالع بعض كتب الادب والتاريخ والتصوف منفردا . ولكن لم يطل عمر المدرسة فان الحكومة التركية لم تقبل جعلها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية وأصر مديرها الشيخ رحمه الله تعالى على اقفالها أن لم تعترف بها فأقفلت ، وطلب للتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت فأقام فيها مدة قصيرة ثم عاد الى طرابلس وواظب على التدريس لطلاب العلوم الدينية في المدرسة الرجبية وفي داره وواظبنا على حضور تلك الدروس حتى تخرجنا بها وأخذنا الاجازة بالتدريس والتعليم منه سنة ١٣١٥ رحمه الله تعالى وجزاه عنا خيرا .

وكانت طريقته في التدريس أن يوجه كل همه الى حل المسائل بسهولة وعبارة سهلة يفهمها الطالب . ولم ندرك زمن تلقي المترجم عنه ولكننا سمعنا منه أنه قرأ كتاب المغني لابن هشام وان الشيخ محمد كامل الرافعي كان يقول انا عند ما نسمع العبارة من الاستاذ نفهمها ونرى انها ظاهرة فاذا أردنا بيانها بعد الدرس تعذر ذلك علينا ورأيناها مغلقة . ولشيخنا الجسر مؤلفات مطبوعة مشهورة أشهرها (الرسالة الحميدية ، في حقيقة الديانة الاسلامية ، وحقية الشريعة المحمدية) التي بين فيها عقائد الاسلام وأركان عباداته وأهم معاملاته الاجتماعية مقرونة بحكمها وأدلتها وذكر ما يرد عليها من الشبهات العصرية وأجوبتها ، وقد كافأه السلطان عبد الحميد بنسبة الرسالة اليه بزلفة ذهبية ووسام فانتقد الناس ذلك عليه لانهم كانوا ينسبون اليه قصيدة بائية فيها طعن شديد على الحكومة ولا سيما رتبها وأوسمتها . وطلبه السلطان الى الآستانة ليكون من شيوخ (يلدز) فأقام بضعة أشهر ثم طلب الاذن له بالعودة الى طرابلس معتذرا بأن هواء الاستانة لا يوافق صحته — وكان مصدورا — فاذن له ،

وأخبرنا بأن العلة الصحيحة للهرب من الاستانة هي المحافظة على الدين

وكان رحمه الله على سعة اطلاعه وأخذه حظا من العلوم العصرية ووقوفه على طريقتها الاستقلالية ، شديد المحافظة على التقليد في جميع العلوم الدينية ، وكنت فتحت في درسه باب المناقشة في أدلة العقائد والمذاهب فكان ينهاني عن ذلك . وكان شديد المحافظة على شرفه وصيته . ولما طبعت الرسالة الحميدية اهداني نسخة منها ثم سألني بعد أيام هل قرأت الرسالة ؟ قلت قرأت بعضها ، قال انه يعجبني رأيك فكيف رأيتها ؟ قلت بعد الثناء عليها بالاجمال انني انتقدت منها شيئين (أحدهما) التعبير عن المسائل العلمية القطعية التي تعتقدون صحتها ككروية الارض بما يدل على الشك أو الانكار ، فاعتذر عن هذا بمراعاة عقول العوام والمتعصبين الذين يطعنون في دين من يقول بهذه المسائل . فقلت اذا لم يتجرأ أمثالك من الموثوق بعلمهم ودينهم على الجزم بهذه المسائل فمن يجزم بها ومتى يكون ذلك ؟ (والثاني) عدم تقسيم الرسالة الى أبواب وفصول يوضع لكل منها عنوان يدل عليه على نحو ما هو مفصل في الدروس للتنشيط على المطالعة وسهولة المراجعة . فقال ان اتصال الكلام ببعض كلماته الجاري من حسن الانشاء وأساليب البلاغة . قلت فلماذا جعل القرآن سورا وهو أبلغ الكلام وأفصحه ؟

هذا وانني لما أنشأت المنار انتقد علي عفا الله عنه الانحاء على خراقات أهل الطريق والشدة والاستقلال في مسائل أخرى في كتاب كتبه لي بعد اشهر من صدور المنار قال فيه : « ظهر منار كالنور عربية الا ان شعله مؤلفة من خيوط قوية كادت تذهب بالابصار » ثم ذكر تلك المسائل في ورقة واحدة من ورق المحطبات العادية ، فكتبت اليه جوابا مفصلا يدخل في بضع ورقات بينت فيه ما عندي من الحجة على صحة ما كتبت وكونه نافعا وضروريا . وقلت فيه ما معناه انني أعرض هذا على مسامع أستاذي معترفا بأنني لا أزال تلميذا له لكن على ما عهد مني من عدم قبول شيء الا بعد الاقتناع به ، وانني انتظار ما يجيب به لاقرره مذعنا له اذا ظهر لي انه الصواب والا راجعته فيه كتابة لي ان يتجلى لي الحق . فلم يرجع الي قولا في ذلك ، وهو لم يكن يتقيد يومئذ الا الاسلوب وما فيه من نشر عيوب المسلمين

توفي رحمه الله تعالى وأنا بمصر فطلبت من نجله الكبير الشيخ محمد بن ان يرسل الي ما عنده

من المواد لاجل كتابة ترجمة حافلة له، وظلك انتظار ذلك زمناطويلا فلم أظفر منه بشيء ولم أكتب شيئا لانني لم أحب أن أكتب ترجمة بتراء . وما رثيته لانني تركت الشعر من قبل الهجرة الى مصر والدلك لم أرث شيخنا الاستاذ الامام أيضا . الا نني زدت في مقصورتي أبياتا فيه وفي السيد جمال الدين رحمهما الله الجميع وجزاهم عنا خيرا . وسنذكر في النبذة التالية من الترجمة تأثير كل من هؤلاء الشيوخ في المترجم رحمه الله تعالى .

﴿ باحثة البادية — تتمة ترجمتها ﴾

حقيقتها النفسية ومذهبها الاصلاحي

ان ما بيناه من خبر نشأتها وتربيتها وما أشرنا اليه من آثارها العقلية هما كالعلة والمعلول والمقدمات والنتيجة في اظهار صورتها النفسية العقلية، وسيرتها العملية، فثبت عندنا ان باحثة البادية ذات رأي ثابت ومذهب كونه العلم والبحث في تربية النساء المسلمات وتعليمهن وما يجب أن يقوم به من الاصلاح الاجتماعي في العالم الاسلامي في هذا العصر . وانها كانت داعية اصلاح منبعثة بغيرة نفسية الى نشر مذهبها والحمل على اتباعه ومناضلة لمخالفين له

قبل أن نبين حقيقة هذا المذهب نقول ان هذه منقبة لامترجمة لم تسبقها اليها امرأة في مصرها في عصرها ، بلعلي لا أبالغ اذا قلت في أمتها العربية كلها، بل هذا مما يقل في الرجال بله النساء ، وقد غفل عن معرفة هذا لها من رثوها وأبنوها في الصحف وفي حفلة التأبين التي نذكرها بعد لان مثل هذه الدقائق لا يلتفت اليها الشعراء والخطباء ولا أكثر كتاب الصحف

كتب كثير من الرجال والنساء في المسائل التي كتبت فيها باحثة البادية في هذا العصر ، ولا نجزم بان أحدا منهم صاحب مذهب ثابت له حافز من نفسه لدعوة اليه والدفاع عنه الا قاسم بك أمين وباحثة البادية . لا أنكر أن من أولئك الكاتبين من هم أوسع اطلاعا وأفصح عبارة من باحثة البادية، وأن منهم من له رأي ثابت فيما كتب خطأ كان أو صوابا، ولكنه يقلد فيه لغيره حتى في الاستدلال . ومزيتها

على أمثال هؤلاء أنها قد ارتقت إلى طبقة أهل الاصلاح وأصحاب المذاهب الاجتماعية.

لما شبت حرب المناظرة والجدال في المسألة التي سموها تحرير المرأة وجعل أساس عقيدتها ما سموه السفور أو رفع الحجاب كنا نرى مقالات كثيرة لمقلدة المحافظين على الحجاب وأخرى لمقلدة التفرنج طلاب السفور، هؤلاء متهوكون في فتنة التشبه بالافرنج ظانين أنهم في التشبه بهم في أهون الامور وألذها يكونون مثلهم حتى في غير ما تشبهوا بهم فيه، وأولئك مستمسكون بكل ما تعودوه ودرجوا عليه ولا سيما اذا كان له شيء من صبغة الدين خائفون أن يكون في التحول عنه انحلال أمتهم بذهاب مقوماتها أو مشخصاتها، وان لم يكونوا على علم بأن للامم مقومات ومشخصات تقوى بالاعتصام بها، وتنحل بانحلالها، وأن ما يحافظون عليه ويخافون دونه منها، لان ذلك الخوف وجداني مبهم، لا علمي مبين، وترى جمهورهم يظن أن ما جرى عليه أكثر نساء المدن وبعض نساء القرى من وضع البراقع على أفواههن هو الحجاب الشرعي

لم تكن باحثة البادية من هؤلاء ولا من أولئك بل كان لها مذهب وسط مبني على أصلين أحدهما وجوب التزام النساء جميع ما قرره الاسلام من عقيدة وأمر ونهي، وثانيهما اقتباس جميع ما تحتاج اليه المرأة المسلمة من الفنون والنظام والاعمال للقيام بما يناط بها عند ما تكون زوجا لرجل وأما للولد ورئيسة لمنزل أو منقطعة لاتقان علم أو عمل، على ما تقتضيه حالة العصر من مجاراة الامم العزيزة القوية في مضمار الارتقاء

ان تسمية هذا المذهب وسطا بين نزغات المتفرنجين ورغبات المحافظين على القديم على علاته يشعر بتفضيله، وناهيك بقاعدة «خير الامور أوساطها» المسلمة عند الجمهور وقد رويت حديثا مرفوعا أخرجه السمعاني في ذيل تاريخ بغداد عن علي كرم الله وجهه بسند مجهول ولكن معناه يؤيد بقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) مع قوله في آية أخرى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وبما تقرر في علم الاخلاق من كون الفضائل أوساطا بين أطراف هي الرذائل كالجود بين طرفي البخل والاسراف .

ويمكن بيان ذلك في هذا المذهب بطريقة علمية مستمدة من سنة الله تعالى في أجساد الناس وأنفسهم وعقولهم . ذلك بأن الله تعالى في تسلسل أفراد الناس

(وغيرهم من الاجيال) بعضهم من بعض سنتين متقابلتين : سنة البنين وسنة التوافق والتوارث ، فبمقتضى سنة التوافق يشبه الابن أباه والفرع أصله في بعض صفاته الجسدية والنفسية وبمقتضى سنة البنين يخالفه في بعض تلك الصفات. فلا يوجد أحد يماثل أباه أو غيره من أصوله في كل شيء أو يخالفه ويبايه في كل شيء، ولولا هاتان السنتان لكان كل فرد من الافراد التي يتولد بعضها من بعض مباينا لغيره كأنه نوع من جنس لم يوجد منه غيره أو لكان جميع البشر كأبيهم الاول في كل شيء بحيث يتعذر التفرقة بين اثنين منهم في سن واحدة ، فسبحان الخلاق العليم الحكيم

ثم ان لله تعالى سنتين كهاتين السنتين في سيرة الناس العملية ، وحياتهم الاجتماعية ، وهما سنة المحافظة والتقليد ، وسنة الاستقلال والتجديد ، وحكمة الله تعالى في جعل مدار ارتقاء البشر في العلوم والاعمال على اجتماع هاتين السنتين كحكمته في جعل مدار وجود الاجناس والانواع على تينك السنتين ، ولو قلد كل أحد من قبله في كل ما وجدهم عليه لكانت حياتهم العملية مماثلة لحياة النحل والنمل من الحشرات التي تعيش بالاجتماع والتعاون ، ولو خالف كل أحد من قبله في كل شيء واستقل بجعله جديدا لخرج الانسان بذلك عن كونه عالما اجتماعيا يرتقي بالتعاون وبناء الجديد على القديم مع التحسين فيه ، ولما تكونت الامم والشعوب ولا ارتقى علم ولا عمل ولا صناعة ، فالامم تتكون بما يشترك أفرادها فيه من العلوم والاعمال التي تطبع في أنفسها ملكات وأخلاقا وأذواقا خاصة تكون من أقوى مقوماتها التي تفصلها من غيرها . ولا يتكون للامة خلق جديد في أقل من جيل وقلما يكمل لها خلق أو ذوق خاص في الفنون والصناعات في أقل من ثلاثة أجيال كما يقول بعض علماء الاجتماع

بعد هذا البيان التمهيدي لبيان قيمة مذهب باحثة البادية في مسألة تربية النساء المسلمات في هذا العصر أقول ان أكثر الذين خاضوا في هذه المسألة يجهلون هذه الاصول فكان منهم من غلبت عليه سنة التقليد والمحافظة على القديم برمته وهو لا يدري أن الاقتصار عليه ضار على أنه محال ، ومنهم من غلبت عليه سنة حب التجديد لكل شيء وابطال كل قديم وهو لا يدري انه مفسدة على انه مطلب لا ينال ، وجهل الاكثرين

من الفريقين أن التطورات الجديدة الطارئة على الامة التي تدعوها الى تغيير شيء من ماضيها وتحدث التعارض والتدافع بين الفريقين المذكورين يجب أن يتروّى في أمر تيارها فلا يساعد على جرفه الماضي الذي صار من مقومات الامة ولا يقاوم بمحاولة منعه من أي تغيير في شؤونها وان كان ازلة ضار واستبدال نافع به . لهذا نرى من المتفرنجين طلاب التجديد بغير علم صحيح ولا فطرة معتدلة من يستعجلون في هدم عقائد الدين وشعائره ، وفي التصرف في اللغة تصرفاً يخرجها عن أصولها وقواعدها وفي تغيير الاخلاق والآداب الاجتماعية بسفور النساء ومخالطتهن للرجال في المجامع والملاهي والحانات والمراقص ، وما الدافع لهم الى هذا الا ما يرون فيه من اللذة والتمتع والتشبه بالافرنج فيما يشكو منه حكماؤهم وفضلاؤهم

كان قاسم بك أمين مستقلا معتدلا في فريق مقلدة التفرنج ، وخصمه محمد ظافر بك حرب مستقلا معتدلا في فريق مقلدة التدين والتعود ، ثم ظهرت باحثة البادية مستقلة معتدلة تجاذبها الفريقان كل منهما يعدها من حزبه فيما توافقه فيه ، فيرد عليها بالانكار فيما تخالفه فيه ، فبهذا التفصيل الوجيز تعرف قيمة هذه المرأة المسلمة العربية المصرية الفاضلة ، وانها فوق قيمة من توصف بأنها كاتبة ناثرة شاعرة ، أو خطيبة ماهرة ، فمزيتها في نساء قومها انها معلمة مستقلة معتدلة

الاحتفال بتأبينها

تحدث بعض من حضر مأتم الباحثة من المفكرين في استحسان إقامة حفلة تأبين لها تكون مظهراً لتكريم الرجال للنساء وترغيبا لهن في العلم النافع والسيرة الزوجية الصالحة ، ثم تألفت لذلك لجنة برياسة شيخ الادباء اسماعيل صبري باشا كان أول عملها أن عرضت على السير عدلي باشا يكن وزير المعارف جعل حفلة التأبين تحت رياسته فقبل مرتاحا ، ولما كان الراغبون في التأبين والرثاء كثيرين اضطرت اللجنة الى اختيار ثلاثة من الخطباء وبعضة من الشعراء الذين يحضرون الحفلة . واختارت من رسائل التأبين والرثاء كلمة وجيزة بليغة لصديقة الفقيدة نبوية موسى ناظرة مدرسة البنات الاميرية في الاسكندرية وقصيدة لاحمد افندي الكاشف الشهير

ثم اختارت ان يكون الاحتفال في قاعة الخطابة الكبرى من دار المدرسة السعدية التي كانت دار الجامعة المصرية ، وضربت موعدا لذلك الساعة الرابعة من مساء يوم الجمعة ثاني ربيع الاول ولم يكد يجيء الموعد حتى غصت تلك القاعة الفسيحة بأهل العلم والادب والوجاهة ، وطلاب الازهر والمدارس التجهيزية والعالية ، وكان المنظم للمكان والمراقب لنظام الاحتفال علي بك حسني ناظر المدرسة السعيدية وهو عريق في ذلك وأصيل . وقد اعتذر عن حضور الحفلة عدلي باشا باعتراف ألم بصحته وحضرها وكيل نظارة المعارف الذي تولى المساعدة نيابة عن الوزير في جعلها في احد معاهد الوزارة

وكان أول الخطباء ابراهيم بك الهلباوي المحامي الشهير وموضوع تأبينه ترجمة الفقيدة فذكر كل ماينبغي ذكره في ذلك بفصاحته وطلاقته التي تشبه بالسيل المدرار ، وتدفق الانهار ، وألم بما دار من الجدل والمناقشات في تعليم المرأة وحجابها ، وعد باحثة البادية حجة على المنكرين ، وقد اضطرب الحاضرون عند ذكر مسألة الحجاب وكاد بعضهم يقاطع الخطيب ويصرحون بأن الفقيدة حجة على طلاب السفور لانها ماتت جميع المتعلمات في مصر وهي محافظة على حجابها الشرعي وناصرة للقائلين به .

وتلاه الشيخ مصطفى عبد الرازق كاتب سر مجلس الازهر والمعاهد الدينية الاعلى فتلا خطبة فصيحة العبارة موضوعها الغرض من اقامة هذه الحفلة وهو تكريم النابغين المستحقين للتكريم من الرجال والنساء لما في ذلك من حسن الاسوة والترغيب في العلم والعمل النافع للامة . وألم بذكر النهضة الحديثة في التعليم وتربية البنات وما للشيخين الاستاذ الامام محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من الجهاد والايد البيضاء في ذلك واستغرب من تقصير أصدقاء الشيخ عبدالكريم الذين هم من كبراء الامة فيما كان ينبغي من الاحتفال بتأبينه ، وما كان ينبغي لغيرهم أن يتقدم عليهم في الدعوة الى ذلك . ونوه بما كان من نجاح باحثة البادية في العلم والدعوة الى اصلاح حال المرأة وما كان من صلاحها في نفسها واشتهارها بعلو الآداب والتقوى الذي استحقت به مثل هذا الاحتفال

ونلاه كاتب هذه السطور وكان موضوع خطابه نبوغ لجنة البادية وانتظامها في سلك المصلحين وآيات ذلك من مقالاتها وخطبها . وقد بدأت بذكر أوليائها الذي تقدمت الاشارة اليها وذكرت أن منها أن أول مكان خطبت فيه هو هذه القاعة التي كان تأسيسها فيها أول احتفال في مصر بتأبين امرأة . ثم ذكرت نحواً مما تقدم في الترجمة من أخبار نشأتها وتعليمها وتربيتها واستنبطت منه أن مدارس البنات الاميرية — وغير الاميرية بالاولى — لا يرجى أن تخرج مثلها لان نبوغها كان بمجموع تلك الأسباب التي ذكرناها لا بالمدرسية السنية التي تعلمت فيها ولا رأينا في كل سنة عدداً من المتخرجات مثلها . ذلك بان التعليم عندنا تقليدي آلي (نسبة الى الآلة) يقصد به ايجاد آلات للحكومة وما يشبه مصالح الحكومة من الاعمال الادارية والزراعية والتعليمية وغيرها ، ولم يكثر النابغون في معاهد التعليم الاستقلالي وهي لم توجد عندنا بعد . لذلك كان كل من ظهر من نابغينا في هذه العصور الاخيرة كالسيد الافغاني والاستاذ الامام ورياض باشا من أصحاب الاستعداد الفطري وما أتيح له من التوفيق والاسباب العارضة

ثم بينت أن لجنة البدية لم تصل الى درجة الطبقة العليا من كتاب العصر لاشتغالها والاعضاء بالاعمال الخاصة بها وان كانت وسعت في ذلك دون ما تسع اليه الجمعيات التي استحقت بها الآن هي استئذان بالذهب الاسلامي الخيري الذي دعوت فيه وتقام الدعوة اليه . وأوجزت في بيان مذهبها الذي ذكرته في الترجمة آنفاً وعلق لوقت عما كنت عازماً عليه من شرحه شرحاً علمياً بالطريقة التي رأيت في الترجمة

ثم انشدت قصائد الرثاء مبتدأة بقصيدة شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي مختتمة بقصيدة شاعر النيل محمد حافظ بك ابراهيم . وبينهما قصائد الاساتذة الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مهدي خليل والشيخ أحمد الزين والشاعرين الشهيرين محمد افندي الهراوي ، وحمد افندي الكاشف . . وبعد انتهاء الساعة السادسة نفض الاحتفال وبطبع كل ما قيل في تلك الليلة مما كتب في الصحف عقب الوفاة وعقب التأبين مع ما أرسل الى لجنة الاحتفال بتأبينه لوقت تحريره ويجمع في كتاب خاص قل عنده شيء منه فنرسله الى ادارة مجلة المنار بمصر .